أ.د. عبد المنعم عبد الحليم سيد *

الهوية الثمودية فى النقوش النبطية

أولا : الطابع العام للنقوش الثمودية

من المعروف أن اللغة الثمودية هى لهجة عربية شمالية تنحدر من اللغة العربية الشمالية التى انحدرت منها لغتنا العربية الفصحى ولكنها تختلف عنها فى نوع الخط الذى كتبت به، فبينما اشتق الخط العربى من الخط النبطى الذى اشتق بدوره من الخط الآرامى الذى انتشر فى الشام بوجه خاص، فقد اشتق الخط الثمودى من الخط الدادانى الذى انتشر فى العلا والذى اشتق بدوره من الخط المسند اليمنى.

وقد تتبع فان دن براندن نشأة الحروف الثمودية واشتقاقها من الحروف الدادانية وخاصة حروف الألف والجيم والدال والذال والهاء (Branden 1950, p.25-27) ثم حروف الياء والألف واللام والميم والسين والفاء والصاد والقاف والشين (Op. cit., p. 29-32) .

والوصف الأكثر انطباقا على الخط الثمودى أنه خط «مخربشات» (Scribbles) حفر حروفه على الصخر أشخاص تتفاوت طريقة وأسلوب كتابة كل شخص بتفاوت ثقافته ومهارته فى الكتابة كما تتفاوت اتجاهات سطوره إذ لاتوجد قاعدة محددة يسير عليها الكتاب الثموديون فى حفر نقوشهم فأحيانا تتجه السطور من اليمين إلى اليسار أو من اليسار إلى اليمين أو من أعلى لأسفل أو حتى من أسفل لأعلى بل وأحيانا تتجه السطور فى شكل دائرى.

---

* أستاذ التاريخ القديم والآثار غير المتفرغ كلية الآداب جامعة الإسكندرية .

ولعل السبب فى ذلك أن الثموديين لم ينتظموا فى دولة تحدد طرق الكتابة فى نظام موحد. وتنسق شئونهم فكان أن دون كل كاتب خطه بالطريقة التى تناسبه أو تحلو له فتفاوتت بذلك أشكال الحروف تفاوتا كبيراً.

وعلى هذا فاللغة الثمودية لم تكن لغة أدبية، وإنما كانت لغة تخاطب والخط الثمودى لم يكن خطا رسميا بل كان خطا شخصيًا ولعل هذا يشبه إلى حد كبير اللغة العامية أو الدارجة التى يستخدمها مختلف الشعوب العربية فى التخاطب. كما أن الخطوط الثمودية المحفورة على صخور الجزيرة العربية بما تتميز به من تفاوت فى أشكالها وموضوعاتها من تحية شخص لآخر أو تمنيات برحلة سالمة (نظراً لأن الثموديين كانوا تجار قوافل ورعاة إبل فى المقام الأول) لعلها تشبه ما يسطره الأفراد فى أيامنا هذه ممن يجوبون المناطق الأثرية فى الدول العربية فيسجلون على هذه المناطق مختلف العبارات التى تبدأ بكلمة «للذكرى» (ولو أنها عادة ذميمة تشوه الآثار حيث بدأت الهيئات الحكومية فى هذه الدول فى التصدى لها).

ثانيا : نتائج عدم وجود خط منتظم لدى الثموديين:

لعل عدم الانتظام فى الخط الثمودى وعدم وجود لغة أدبية لديهم يقدمان لنا حلا لمشكلة كثيرا ما واجهت الباحثين وهى تسجيل الثموديين بعض شئونهم بخط آخر ولغة أخرى غير خطهم الثمودى ولغتهم الثمودية وهما الخط النبطى واللغة النبطية .

والأمثلة على ذلك نقشان أحدهما فى مدينة مدائن صالح والآخر فى بلدة «روافة» الواقعة جنوب غرب مدينة «تبوك» بحوالى ١٠٠ كيلو متر، فأما النقش الأول فهو يخص سيدة تدعى بالثمودية « ل ق ش / ب ن ت / ع ب د / م ن ت » وبالنبطية «رقوش برت عبد منوتو» وهذا النقش بخطين أحدهما الخط النبطى وهو من تسعة أسطر أفقية كتبت بطريقة منتظمة من اليمين إلى اليسار شأن سائر النقوش النبطية والخط الآخر هو الخط الثمودى وهو من سطر واحد كتب رأسيا إلى يمين النص النبطى وبنفس ارتفاعه تقريبا (شكل ١ وشكل ٢) والنص النبطى يسجل ملكية السيدة رقوش للقبر المدون اسمها بجانبه وهو عبارة عن فجوة مستطيلة محفورة فى الصخر بالقرب من قمة الضريحين اللذين يقع بينهما وترجمة هذا النص ببعض التصرف هى «هذا (الـ) قبر نحته كعب بن حارثة لرقوش بنت عبد مناة والدته التى توفيت فى الحجر (مدائن صالح) سنة مائة واثنين وستين من شهر تموز وليلعن إله العالم من يعتدى على هذا

القبر أو من يفتحه فيما عدا ولدها (للقراءة والترجمة الحرفية للنقش أنظر شكل ٢) . (Contineau 1978, II, p. 38)

أما النص الثمودى الذى يتكون من سطر واحد رأسى فقراءته هى «ذ ن / ل ق ش/ ب ن ت/ ع ب د / م ن ت» وترجمته هى : «هذا (قبر) لقوش بنت عبد مناة» (شكل ١) .

ومن هذا يتضح أن صاحبة هذا القبر ثمودية الهوية وأن ابنها استخدم لغته الثمودية والخط الثمودى للإفصاح عن هوية أمه بينما استخدم الصيغة النبطية لإثبات ملكية أمه للقبر حتى لايعتدى عليه أحد وهذه الصيغة هى الصيغة الشائعة فى الكتابات المدونة على واجهات أضرحة مدائن صالح الأخرى أى أنها تشبه ما نسميه فى عصرنا «نموذج إثبات ملكية» ولو أنها تختلف فى بعض عباراتها ولكن مفهومها العام واحد لأن جميعها تقريبا تبدأ بعبارة نبطية واحدة ترجمتها هى «هذا قبر» ثم تذكر اسم صاحب القبر وأحيانا أسماء من يوصى لهم بالدفن فى قبره ثم يذكر نص اللعنة ضد كل من يعتدى عليه ويختتم أغلب هذه الصيغ بإثبات التاريخ وهو سنة حكم الملك النبطى الذى نحت القبر فى عهده (ولو أن النص الذى نحن بصدده اختلف فى استخدام تقويم بصرى الذى اتبع عند انتهاء دولة الأنباط سنة ١٠٦م فالنص مؤرخ بما يعادل ٢٦٧ ميلادية.

ولعلنا نستنتج من ذلك أن الثموديين استخدموا هذا النموذج أو هذه الصيغة النموذجية النبطية المتعارف عليها فى تسجيل أحد شئونهم الرسمية وهو إثبات الملكية بينما استخدموا خطهم الثمودى ولغتهم الثمودية فى الافصاح عن هويتهم.

والحقيقة أن هذا ليس المثال الوحيد لاستخدام الثموديين للخط النبطى واللغة النبطية فى شئونهم الرسمية فقد استخدموهما فى معبد روافه الذى ذكرناه وذلك فى النص التالى «دنه نوسا دى عبدت شركت ثمودو» (Milik 1971, p. 44) وترجمته هى «هذا (هو) الهيكل الذى شيدته قبيلة (أو اتحاد قبائل) ثمود» وهذا النص مؤرخ بتقويم بصرى بما يعادل ١٦٦ ميلادية .

ومن الواضح أن هذا النص قصد منه إثبات ملكية الثموديين لهذا المعبد ولو أنهم أهدوه إلى اثنين من أباطرة الرومان المعاصرين لهم .

ومن هذا يتضح ما أشرنا إليه سابقا من أن سبب استخدام الثموديين للخط النبطى واللغة النبطية فى هذين المثالين رغم أنه كان لهم لغة وخط خاصّين بهم هما اللغة (أو اللهجة)

الثمودية والخط الثمودى- سبب ذلك أن اللغة الثمودية كانت لغة تخاطب أكثر منها لغة تسجيل أو لغة أدبية وقد استخدم الثموديون خطهم ولغتهم فى التفاهم بين بعضهم البعض ومن هنا وجدنا آلاف النقوش أو المخربشات الثمودية محفورة على صخور الجزيرة العربية، ولهذا لم يكن هذا الخط الشخصى غير المنتظم يصلح فى تسجيل الشئون الرسمية مثل تسجيلهم ملكية مقبرة أو معبد فاستخدموا خطا منتظما له أصول وقواعد متعارف عليها وهو الخط النبطى وتبع ذلك استخدامهم اللغة المكتوبة بهذا الخط وهى اللغة النبطية واللذان كانا ينتشران فى منطقة الحجاز حيث قامت دولة الأنباط التى امتدت فى عصر ازدهارها من حدود الشام شمالا مرورا بالبتراء العاصمة الأولى لدولة الأنباط حتى مدائن صالح جنوبا التى كانت بمثابة العاصمة الثانية لدولة الأنباط. وبطبيعة الحال فإن دولة منظمة كهذه كان لها خطها المنتظم ولغتها الأدبية ولعلها تشبه عندنا الخط العربى المنتظم الذى يلتزم أصوله الخطاطون (سواء كان نسخا أو رقعة أو غيرهما) كما أن اللغة النبطية تشبه اللغة العربية الفصحى كلغة كتابة وأدب (ولو أنه لم يصل للعلماء نصوص أدبية باللغة النبطية، وما يسمى فى المملكة العربية السعودية بالشعر النبطى ليس به من اللغة النبطية عبارة واحدة فهو شعر عامى باللهجة السعودية الدارجة).

ثالثا: سبب استمرار استخدام الثموديين للخط واللغة النبطية رغم زوال دولة الأنباط:

مما يدل على انتظام الخط النبطى وثبات اللغة النبطية كلغة رسمية أن الثموديين استخدموهما بعد زوال دولة الأنباط على أثر إسقاط الرومان لعاصمتها البتراء عام ١٠٦ ميلادية أى أن التراث النبطى فى الخط واللغة استمر بعد ذلك التاريخ بحوالى مائة وستين عاما (نقش رقوش المؤرخ بما يعادل سنة ٢٦٧ ميلادية كما ذكرنا).

غير أن هذا التفسير وحده أى استمرار استخدام الخط النبطى وثبات اللغة النبطية كلغة رسمية وحدهما لدى الثموديين لايبرر تمسك الثموديين بهما هذه المدة الطويلة أى بعد زوال النفوذ النبطى بما يزيد على قرن ونصف وإنما لابد أن هناك سببا آخر عزز من ذلك ، هذا السبب هو فى رأيى وجود رابطة قرابة قوية بين الثموديين والأنباط تفسرها لنا الآيات الواردة فى القرآن الكريم عن الثموديين فقد نسبت هذه الآيات إنشاء الأضرحة النبطية فى الحجر (مدائن صالح) إلى قوم ثمود (سورة الفجر، آية ٩ . وسورة الحجر، آية ٨٠ . وسورة الأعراف، آية ٧٤ .) لا إلى الأنباط رغم ما على واجهاتها من كتابات بالخط النبطى واللغة النبطية مما

يرجح أن الأنباط كانوا فى الأصل قبيلة من القبائل الثمودية اجتذبت أفرادها ثروة التجارة المتدفقة عبر الطريق التجارى العظيم (أو طريق الذهب والبخور) القادم من اليمن والمتجه إلى الشام فانسلخت هذه القبيلة من الشعب الثمودى واستقرت فى منطقة البتراء الغنية بالمياه الباطنية والواقعة على هذا الطريق حيث استنبطت هذه القبيلة المياه بحفر الآبار وأطلق رجالها على قبيلتهم اسما يشير إلى هذا الاستنباط وهو «نبطو» فإن هذه الكلمة عربية قديمة وردت فى النصوص العربية الجنوبية بالصيغة «ن ب ط» وأحيانا «هـ ن ب ط» بنفس المعنى أى مما يدل على استنباط الماء (Beilla 1982, p. 290) وقد أضاف إليها الأنباط حرف الواو النهائى الذى هو من خصائص أسماء الأعلام النبطية (Contineau 1978, II, p. 165) وصار ملكهم يلقب بـ «ملك نبطو» (Op. cit., p.119) .

وكما هو معروف فقد انتحل الأنباط اللغة الآرامية والخط الآرامى واستخدموهما عوضا عن خطهم الثمودى ولغتهم الثمودية لكى يسهل عليهم التعامل مع أسواق الشام التى كانت تسود فيها هذه اللغة وهذا الخط والتى كانت تصب فيها السلع الثمينة القادمة من الجنوب والتى أصبحوا يتحكمون فيها بحكم موقع عاصمتهم البتراء. وليس أدل على الأصل الثمودى (أو العربى الشمالى) للأنباط من أن اللغة العربية الشمالية بدأت بمرور الوقت تتغلغل فى لغتهم الآرامية المنتحلة فإن المقارنة بين نصوصهم المبكرة المدونة على واجهات أضرحة مدائن صالح والتى ترجع إلى أواخر القرن الأول قبل الميلاد، والتى تسود فيها الكلمات والتعبيرات الآرامية- بمقارنتها بنصوصهم المتأخرة المدونة على واجهات هذه الأضرحة وعلى غيرها فى كل من العلا (نقش شمعون المؤرخ بما يعادل ٣٠٧م ,JS 1909) II, Atlas, pl. CXXI) وبمدائن صالح (نقش رقوش المشار إليه) يلاحظ غلبة الكلمات العربية الشمالية (القريبة من العربية الفصحى) على الكلمات والتعبيرات الآرامية.

هذا الارتباط فى الأصل بين الثموديين والأنباط هو الذى يفسر تمسك الثموديين باللغة والخط النبطيين بعد زوال دولة الأنباط بوقت طويل كما يفسر سبب إطلاق القرآن الكريم اسم ثمود على أضحاب أضرحة مدائن صالح رغم الكتابات النبطية التى عليها فمن الواضح أن القرآن الكريم خاطب الشعب العربى الأصلى وهو الشعب الثمودى الذى تنتمى إليه القبيلة أو القبائل النبطية ولم يخاطب الأنباط الذين انسلخوا منه وغيروا لغتهم العربية وخطهم العربى واستبدلوا بها خطا ولغة غريبة على العرب ولعل هذا يفسر اعتبارهم «أعاجم» فى نظر الإخباريين العرب.

المراجـــع

- Branden 1950 :

Van den Branden, ALB; Les inscriptions Thamoudéennes, Louvain.

- Cantineau 1978 :

Cantineau, J., Le Nabatéen , 2 vols. Paris, 1930-1932 .

- JS 1909 :

Jassen & Savignac,

Mission Archéologiques en Arabie, 4 Tomes, 1909-1914 .

- Milik 1971 :

Milik J.T "Inscriptions Grecques et Nabateennes de Rawafah " Bulletin of the Institute of Archaeology, No. 10 , London .

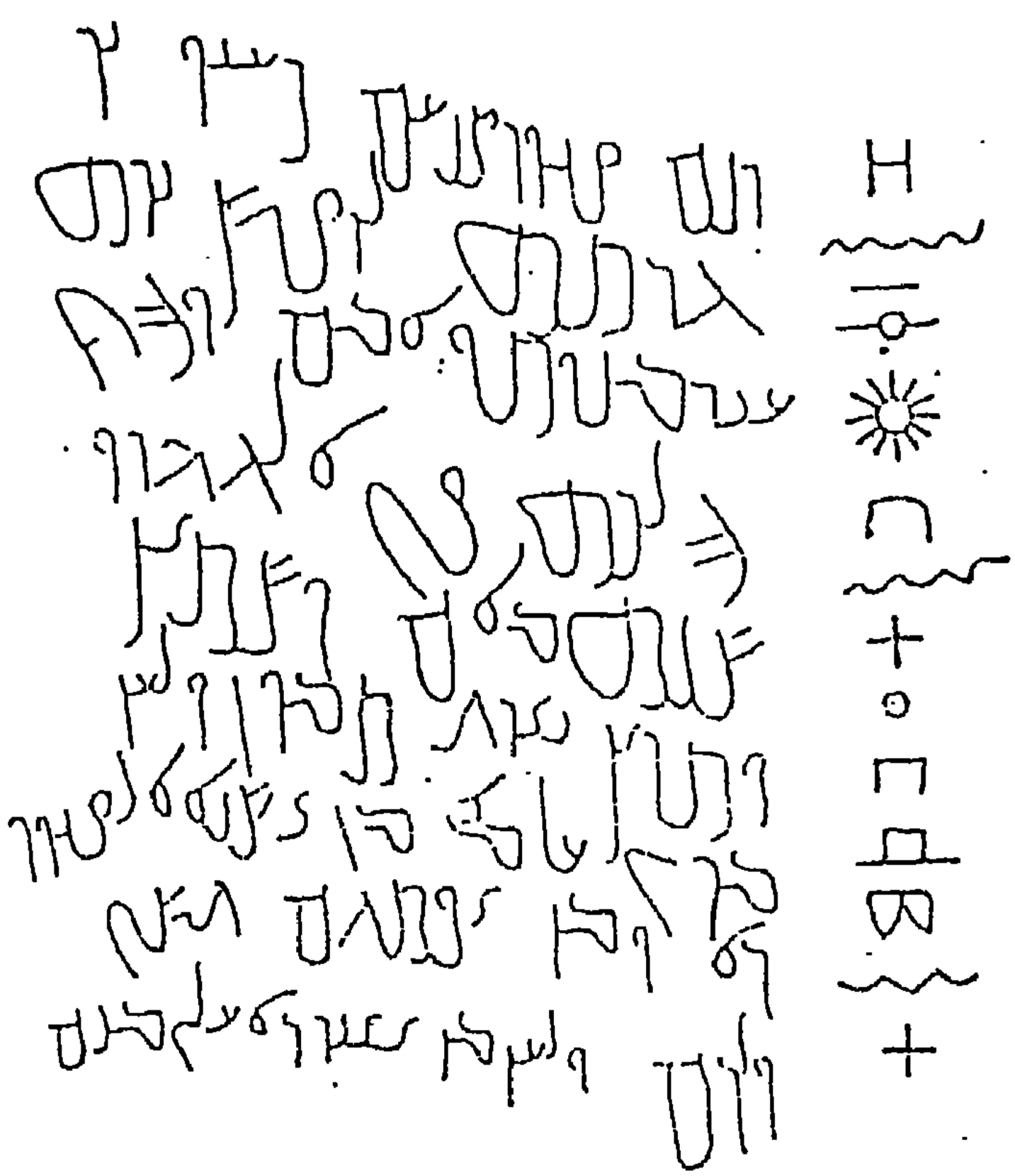

(شكل ١) النقش المحفور على واجهة مقبرة السيدة رقوش الثمودية فى منطقة قصر البنت بمدائن صالح ويتكون من تسعة سطور أفقية بالخط النبطى واللغة النبطية (لغة الشئون الرسمية عند الثموديين) ومن سطر واحد رأسى بالخط الثمودى واللغة (أو اللهجة) الثمودية وهى لغة التخاطب عند الثموديين.

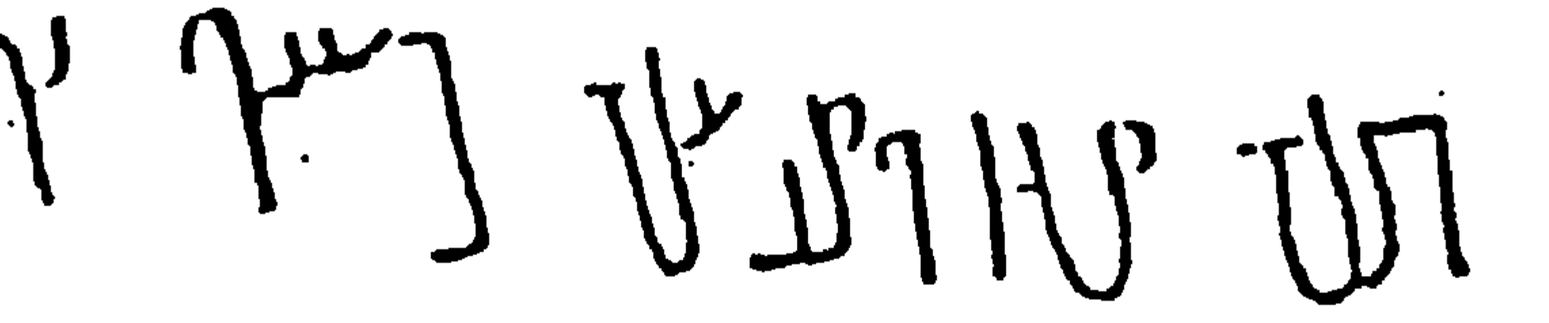

سطر ١

القراءة : ته قبر وصنعه كمبو بر

الترجمة : هذا (الـ) قبر صنعه (نحته) كمب بن

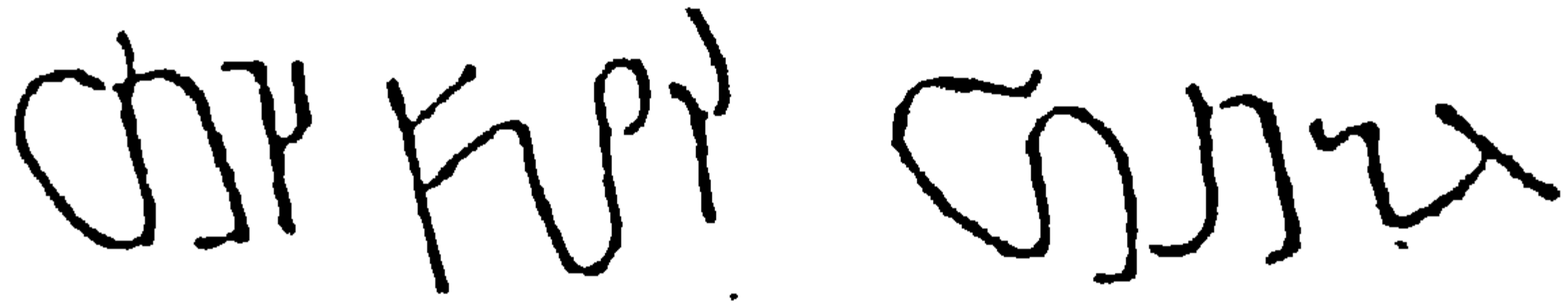

سطر٢

القراءة : حـــر ثـــت لرقوش برت

الترجمة : حـــارثـــة لرقوش بنت

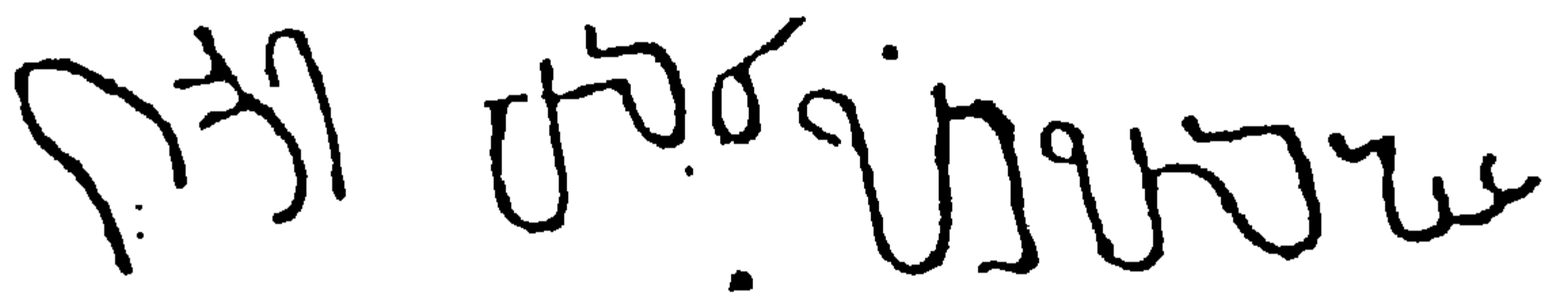

سطر٣

القراءة : عبد منـــو تـــو أمه وهى

الترجمة : عبد منـــــاة أمه (والدته) وهى

سطر٤

القراءة : هـــلكت فـــى ألحجـــر و

الترجمة : هلكت (توفيت) فـــى ألحـــجـــر

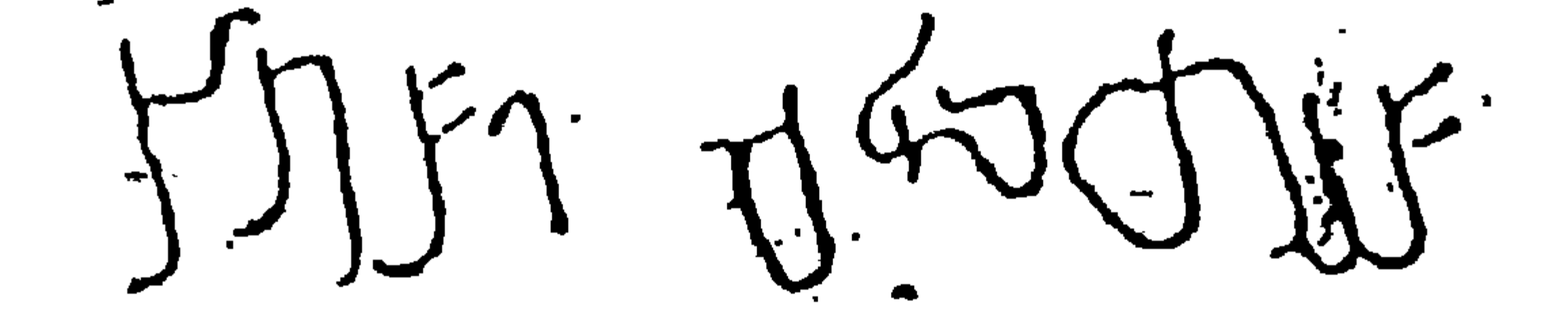

سطره

القراءة : سنت مـــأه وستين

الترجمة : سنة مائـــــة وستين

(شكل٢أ) تفصيل النقش النبطى (المنشور فى شكل١) وقراءة وترجمة السطور من ١ إلى ٥

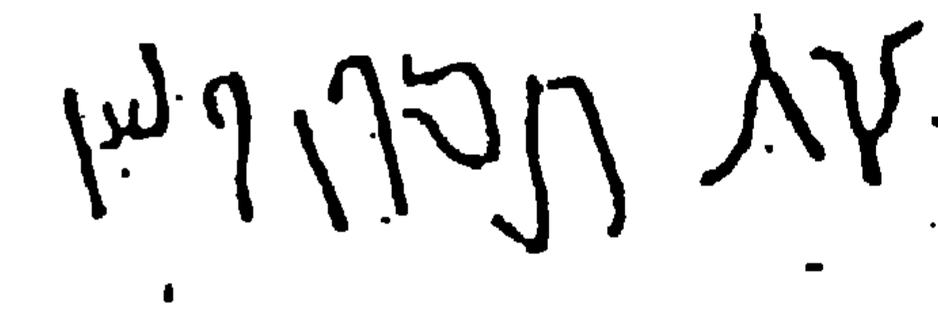

سطر ٦

القراءة : واتنيـــن بيـرح تمـــــوز ولعن

الترجمة : واتنيـــن فى شهر تمـــــود ولعن

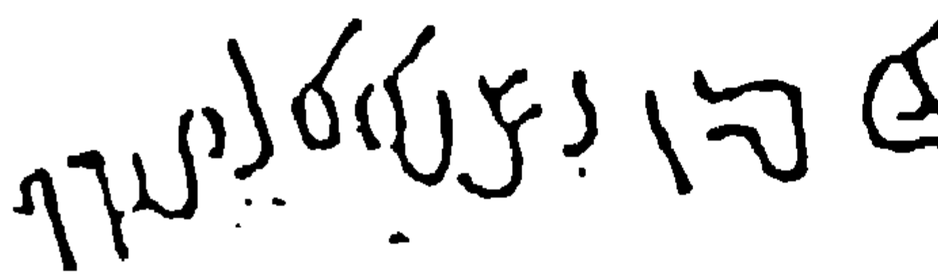

سطر٧

القراءة : مر ى علـــمـــا من بنأ القبرو

الترجمة : سيد العالم من بنأ القبر

(يعتدى على)

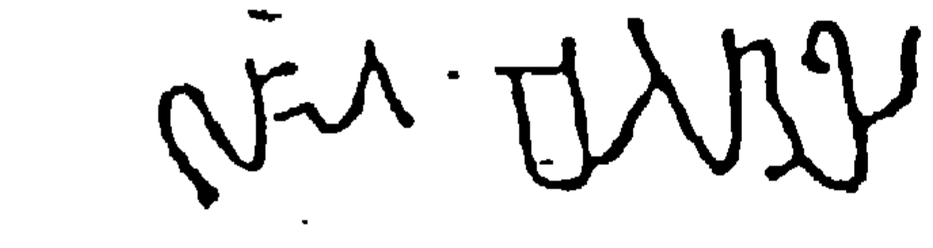

سطر٨

القراءة : دا و . من يفتحـــه حشى

الترجمة : هذا (ده) ومن يفتحـــه حاشـا

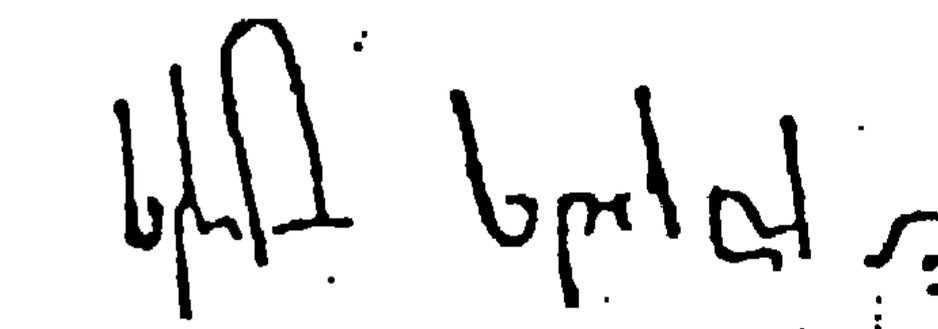

سطر٩

القراءة : ولده ولعن من بغير دا على منه

الترجمة : ولدها ولعن من يغير هذا (الذى) أعلاه

(ربما المقصود هذه الكتابة)

(شكل٢ب) تفصيل بقية النقش النبطى، قراءة وترجمة السطور ٦-٩